

فنون

الغناء والمعمار والتصوير

فى العصرين: الأموى والعباسى

الدكتور عبد الحكيم العبد

من كتابه/ الوجيز فى الأدب العربى: (صدر الإسلام وعهد بنى أمية- العصر العباسى)

* جاء الإسلام صديقاً حقاً للجميل فى كل أمر؛ بما فى ذلك مشاهد الأرض والسماء الدنيا والثروة الحية والسائلة والمعروف والكلمة الخيرة والمال والبنون الزينة وسائر المتع غير المسرفة؛ أى كل ما لا يصرف عن خير أو عبادة أو علم؛ فـ"إن الله جميل يحب الجمال"^١، وروى "الجميل" بنص الحديث الشريف:

■ بلفظ "الجمال" ٦٧ مرة فى القرآن الكريم^٢؛

■ وفى مضامين الزينة فى (١٣) صيغة، توزعت ٤٦ مرة وهكذا^٣

■ وفيه فراق ما "بين جميل الجمال وقبيحه": كالـكبر – التبخر – الافتتان بالثراء الخ فى درسنا^٤

■ والمعروف أن القرآن كله بيان بالجمال ونظم به فى العربية لا يخلق ولا تنتضى عجائبه على كر الدهر. ومع دلائل استيلاء الجمال: شعرا وغناء وقيما على العرب والمسلمين بعد، ورغم ما دحض من مقولة تضاد ذلك؛ فقد يشيع ولاسيما صدد فنون الحضارة الإسلامية الأخرى كالمعمار وآلات الغناء وغير ذلك أن العرب استمدوا منهم من جملة من المدنات القديمة التى ازدهرت قبلهم؛ حتى قيل: إن فن العرب امتداد للفنيين البيزنطى والفارسى. وهذا أخذ بالظاهر غير مخلص أو غير منصف.

الغناء

- فى الغناء كانت مكة ضاحية للمدينة؛ ومن كل دور مغنيها تكونت أندية وإن لم تعرف بها دار كبيرة كدار جميلة بالمدينة^٥؛ اللهم ما ذكره شوقى ضيف بعد فى قصر الثريا بمكة^٦. وقد عدد شوقى ضيف ووصف لكل من:- من شغف من الفقهاء بالغناء – ومن القضاة – ومن عرف بالمرح الواسع

■ فملازمة الغناء للشعر عند العرب عبر العصرين الجاهلى والإسلامى مقر بها عند ابن خلدون

^١ - صحيح مسلم، دار ابن الهيثم ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م، ص ٣٣، باب ٣٦، من كتاب الإيمان، برقم (١)، بدءا من ص ١٥ + عبد الحكيم العبد/ فى محاولات تقديم القرآن وترجمته والرد عليها: عرض وتقييم وتقويم، مراجعة مجمع البحوث الإسلامية، ١١ / ٧ / ٢٠٠٤ م، ص ١٢٢

^٢ - عبد الحكيم العبد/ فى محاولات تقديم القرآن وترجمته والرد عليها: عرض وتقييم وتقويم، مراجعة مجمع البحوث الإسلامية، ١١ / ٧ / ٢٠٠٤ م، ص ١٢٠.

- فى "مظاهر التنعم بنعمة مسداة"، بالحلّى وهكذا ص ١٢٠

المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى، ط بريل، لبنان، مج ١، ص ٢٧٣

^٣ وفى جميل الطبيعة والمظهر والامتلاك والأبهة والاعتقاد والتبنى والاقتناء والاحتفال والتحلّى/ ن/ عبد الحكيم نفسه ص ١٢١

^٤ - عبد الحكيم العبد/ فى محاولات تقديم القرآن وترجمته والرد عليها: عرض وتقييم وتقويم، مراجعة مجمع البحوث الإسلامية، ١١ / ٧ / ٢٠٠٤ م، ص ١٢٢، ١٢٣

^٥ -- شوقى ضيف/ تاريخ الأدب العربى: العصر الإسلامى، دار المعارف، ط ١٦، ص ١٤٢

^٦ -- شوقى ضيف/ تاريخ الأدب العربى: العصر الإسلامى، دار المعارف، ط ١٦، ص ١٤٧

؛ قال: "كان الغناء فى الطور الأول من من أجزاء هذا الفن(يعنى "علم الأدب") ؛ " كما هو تابع للشعر ؛ إذ الغناء إنما هو تلحينه".^٧ وقد نظم رجال هذا الفن ونساءه فى طبقات أسوة بنوابع الأدب .

الطبقة الأولى: نشيط - طويس - سائب خاسر ؛ وهم بعض عباقرة الغناء فى المدينة

وفى الطبقة الثانية:معبد وطبقته - ابن سريج .

وهو القائل : "وظهر بالمدينة نشيط الفارسي وطويس وسائب خاثر مولى عبد الله بن جعفر فسمعوا شعر العرب ولحنوه وأجادوا فيه وطار لهم ذكر. ثم أخذ عنهم معبد وطبقته وابن سريج وأنظاره".^٨

- عد الأصفهاني معبدا تلميذا أصله جميلة - قال "وهى أصل من أصول الغناء ، وعنهما أخذ معبد وابن عائشة وحبابة وسلامة وعقيلة العقيلية والشماسيتان: خليفة وربيحة"^٩

- ولا شك أن هؤلاء الموهوبين ومن إليهم من الشعراء الذين تُخَيَّرُوا معهم قد شكلوا نسبة كبيرة من الأصوات المائة المختارة للغناء بأمر الخليفة العباسي هارون الرشيد فيما بعد ؛ بواسطة ابراهيم الموصلي و اسماعيل بن جامع و فليح بن العوراء.^{١٠} - وهو يذكر من آلات العزف فى ذلك : العيدان والطنابير والمعارف وكذا المزامير^{١١} - لقد استخدمت فى الغناء بالمدينة ستة ضروب (أدوار) ميزت فيها مجارى الأصوات على الأصابع (السلم بلغة العصر الحديث)؛ كما استعملت فيه الجوقات الكبيرة واكتملت نظريته ولم تفقد أصالتها بألحان الروم والفرس.

- والعود فى درس الموسيقى المتخصص محمود كامل قد دخل بلاد العرب باسم البربط فى العصر الجاهلي مع نشيط الفارسي . كما وجد الطنبور آلة وترية تشبه السمسمية اليوم ، وهما من المعارف التى وجدها محمود كامل تجمع الوترية؛ وأقدمها الرباب ، ومنها الكمان فيما بعد ؛ ولنذكر مع محمود كامل أن أول آلة موسيقية حقا هى حنجرة الإنسان وفمه ؛ وقد استخدمهما الجاهليون فى الصفير وهو المكاء فى تعبيرهم ، كما استخدموا التصدية : أى التصفيق بالأكف.^{١٢}

- ثم ذكر اكتمال صناعة الغناء أيام بنى العباس.^{١٣} وقد سبق بياننا ضخامة علم العرب بالموسيقى ذات القياس الزمنى المحدد فى أجيال : الخليل - الجاحظ - الأصفهاني - إلى المعري - والمصريين: الحسين بن على المغربى و المسبحى فى ق ٥^{١٤} .

^٧ ابن خلدون/ المقدمة ، دار الكتاب اللبنانى، ص ١٠٧٠

^٨ أبو الفرج الأصفهاني/ كتاب الأغاني لأبى الفرج الأصفهاني، إعداد لجنة نشر كتاب الأغاني، بإشراف محمد أبو الفضل ابراهيم،

همك، ج ١، ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م، ص ٢٥، ٢٦

^٩ / الأصفهاني، ط جمال، مج ٨، ص ١٨٦

^{١٠} مقدمة كتاب الأغاني للأصفهاني، همك، ص ٢

- وتابع رحلة الاختيار : نخلا وإضافة وتصنيفا ، عبر العصر العباسي ؛ مما شارك فيه خلفاء وأبناء خلفاء . وسائر الأصوات منبثة فى مجلدات كتاب الأغاني الأربعة والعشرين، فى ط همك و ط مؤسسة جمال للطباعة والنشر .

^{١١} ابن خلدون/ المقدمة، دار الكتاب اللبنانى، ص ٧٦٥، ومنه المنقول بمقدمة تحقيق الأغاني ، همك، ص ٢٤، ٢٥

^{١٢} محمود كامل/ تذوق الموسيقى العربية، ص ٧٩، ٨٠

- وابن خلدون / المقدمة، .. ص ٧٦٥

^{١٣} قال: لدى ابراهيم بن المهدي و ابراهيم الموصلي وابنه اسحاق إلى اسحاق بن اسحاق هذا نفسه.

- كذا ذكر مؤدى الإلتقان فى الغناء باتخاذ آلات الرقص فى الملابس والقضبان والأشعار التى يترنم عليها ، وجعلها صنفا وحده (لعله يقصد به الموشحات)

- ذكر اتخاذهم آلة أخرى للرقص تسمى الكرج (الحصان الخشبي)

- صرفهم زريابا غيرة منه إلى المغرب ، حيث نزل لدى الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل الذى أكرمه ؛ وأنه كان غلاما للموصلين. انتقل معه فنه إلى المغرب وأثر فيه .

^{١٤} عبد الحكيم العيد - عن يوسف شوقى ودرسه ليوسف فارمر بكتابنا/ أبو العلاء المعري ونظرة جديدة إليه مج ١ ، دار المطبوعات الجديدة ، ص ٩٥ ، ١٨١ ، ١٨٢

- وينظر كتابنا/ علم العروض الشعرى فى ضوء العروض الموسيقى، ط غريب (مثلا) ص ١٥١ +

- ويعزز من ذلك قول شوقي ضيف في جانب التأصيل بالنهضة الغنائية/ الشعرية في العصر الأموي أن الغناء قد استوت نظريته عربية و"أن مصطلحاتها جميعا عربية وأن من قاموا عليها من الرقيق الأجني ولدوا في بلاد العرب جميعا ما عدا نشيطا الفارسي^{١٥} . وكانت العادة أن يبدؤا بالغناء العربي ثم يرحلوا إلى بلاد الفرس والروم فيأخذوا عنهما غناءهم ويدخلوا ألعانه في غناء العرب" ، وقد عرفت أكثر آلاته (الصنج - المزهر - القضيبي - الدف - الطبل - المزمار - العود - الطنبور) في العصر الجاهلي^{١٦} .

- ووفقا لبحث ضيف نوضح المدني والمكي منهم كالتلي

المغنون في المدينة ومكة في العصر العباسي	
في المدينة	في مكة
نشط الفارسي	ابن مسح
طويس	ابن محرز
سائب خاسر	
معبد	ابن سريج
ابن عائشة	الأبجر
مالك الطائي	الهذلي
عطرّد	
يونس الكاتب	
عزة الميلاء	سمية
جميلة	بغوم
سلامة القس	أسماء
حبابة	
سلامة الزرقاء	

٥ فناء التصوير والبناء:

- نزع المسلمون في التصوير إلى التجريد الخطي حتي في تمثيل بعض الحيوانات والنيات . وقد استعملوا الخطوط الهندسية للزينة وإعطاء إحساس بالتواصل والأبدية. وقد عرف هذا الفن باسم "الأرابسك" لخصوصه بهم، ومنه ما وجد في قصر الحير بالقرب من تدمر من أفانين الزخرفة والتصوير العربي.

- ولما فتح العرب الشام وفارس أخذوا بفن البناء فزادوا على فن غيرهم روحا خاصة وامتاز بناؤهم بالأعمدة والمنحنيات والقباب وما إلى ذلك. ويستطيع الإنسان العادي أن يلحظ مباشرة فرق ما بين برج بيزنطي أو فارسي ومسلة فرعونية ومئذنة إسلامية: غلظة في الأول وترقق في الثانية ؛ ولكن المئذنة تجرد من الصلابة والارتفاع في الاثنين قوة رقيقة أو رقة قوية توحى بالثبات والتساوي والوحدة في التنوع وغير ذلك.

- ومن ترجمتي عن ول ديورانت: أن العرب "طوعوا الأشكال الفنية والتقاليد الخاصة ببيزنطة ومصر وسوريا والهلل الخصيب وإيران والهند"^{١٧} ؛ وضرب أمثلة من قبة الصخرة ومسجد الوليد الثاني وزخارف السجاد والأشكال الكنسية وزخارف الأعمدة الساسانية ؛ وإن بدا الأولان

^{١٥} - ذكر منهم: طويس - سائب خاسر - معبد - ابن عائشة - مالك الطائي - عطرّد - يونس الكاتب الذي ينسب إليه أول كتاب في الغناء) - عزة الميلاء - جميلة - سلامة القس - حبابة - سلامة الزرقاء - / شوقي ضيف/ تاريخ الأدب العربي: العصر الإسلامي، دار المعارف، ١٦، ص ١٤١

^{١٦} شوقي ضيف/ تاريخ الأدب العربي: العصر الإسلامي، دار المعارف، ١٦، ص ١٤٠، ١٤١

^{١٧} - ول ديورانت / قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، ط جامعة الدول العربية، ج ٢، مج ٤ (عصر الإيمان) ، فصل ٧ (الفن) ص ٢٣٥ + ٢٣٩، ٢٤٠

بيزنطيين خالصين حتى في زخارفهما في رأيه.^{١٨} ؛ أما في الشرق الأبعد قليلا فقد طوعت زخارف السجاد الأشوري والبابلي القديم كما طوعت الأشكال الكنسية الأرمينية والنسطورية . وفي فارس (خاصة بعد تدمير كثير للأدب والفن الساساني) فإن الإسلام خاط مزايا مجموعات الأعمدة والقوس الممتد ، وتلك الأساليب الخاصة بالحليات الزهرية والهندية التي ازدهرت أخيرا في الأرابيسك متجاوزا التقليد إلى نسيج عبقري ذي شخصية لها تنوعاتها المعبرة عن الروح الإنسانية برقة في غاية الثراء لم يشهد التاريخ لها مثيلا.^{١٩}

- وفي تقديره لجوانب الرقة والذوق مقابل الصلابة فلي المنشآت الإسلامية ؛ حتى في المرحلة الأموية قال: " فيما يتعلق بالقصور الأموية فإن قليلا منها هو الباقي بعكس الشرق البعيد للبحر الميت ؛ فما بقي هو منزل ريفي في "قصير عميرة" تظهر فيه الأنقاض حمامات مسقوفة بالأقواس وحوائط مبطنة بالمونة".^{٢٠}

- قال : وهي تقنيات معمارية لطيفة في مقابل المعمار الصلب المتبقى من آثار الفن الإسلامي ، ونسمع صده عن عبارات مياه ونافورات وخزانات وخمائم عامة ومدن خصبة وحوائط مزغلة(للبنادق) بناها معماريون كانوا في كثير من حالات القرون الأولى للفتح الإسلامي مسيحيين ؛ ولكنهم بعد أن قرون كانوا مسلمين بشكل غالب؛ حتى إن الصليبيين تعلموا منهم الحوائط المميكنة وأفكارا كثيرة عن قلاعهم وحصونهم التي لا قرين لها.^{٢١}

* * * *

¹⁸ تراجع أيضا ترجمة محمد بدران للكتاب أيضا في ط جامعة الدول العربية، ص ٢٣٥ / كتاب قصة الحضارة (عصر الإيمان) ج ٢،

مج ٤

¹⁹ - The Art. p. 260. AH, v11

- و ول ديورانت / قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، ط جامعة الدول العربية، V AH، ص ٢٧٠ ،

- وفي ترجمة محمد بدران ، عصر الإيمان، ج ٢، مج ٤ ، فصل ٧ (الفن)، ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

²⁰ نفسه، The Art, p 270

²¹ نفسه، وراجع ترجمة بدران ص ٢٤٠ .